

الفصحى والعامية في شعر "سيدي لخضر بن خلوف".

د. بصالح خديجة

جامعة مستغانم.

مقدمة:

للأمة العربية تراث ثري، بنثره وشعره، تتجلى من خلاله ثقافتها الواسعة، ومثلما زواج هذا التراث بين الشعر والنثر، زواج أيضا بين الفصحى والعامية كأداة للتواصل بين أفراد المجتمع والتعبير عن أفكاره وخلجاته الداخلية. ومنه كان الأدب الفصيح "الرسمي" الملتزم بقواعد اللغة العربية من نحو وصرف، والأدب "الشعبي" الذي لا يلتزم بهذه القواعد، لكنه ملكة قادت شعوبا كثيرة إلى الحفاظ على مقوماتها الشعبية، كما انعكست من خلالها ملامح ثقافة تلك الشعوب ومظاهر حضارتها. ويعدّ "الشعر الشعبي" جزء لا يتجزأ من الأدب الشعبي؛ ساهم بقسط وافر في تمثيل حالة المجتمع العربي تمثيلا صحيحا لا غبار عليه .

1- مفهوم الشعر الشعبي والعامي :

إنّ مصطلح "شعر" يرتبط بالتذوق والأحاسيس واللغة واللسان والمعرفة والثقافة، ولا يشترط توفرها بنسب متساوية؛ بل قد تكون متباينة في الشعر، ومهما اختلفت الأقوال فيه فإننا نجده يتوحد في نقل ما هو داخلي من تصورات وأفكار الآخرين باستعمال ملكات اللغة، إنها سمات يشترك فيها معا

كلّ من الشّعْر الفصيح (الرّسميّ) والشّعْر الشّعبيّ، إلّا أنّ هناك ثمة فروق تفصل بينهما كمرعاة الضّوابط النّحويّة والصّرفيّة في اللّغة. ويرتبط مفهوم "الشّعبيّ" بمصطلح الشّعْب، وهو مجموعة من الأفراد الملتفين حول هدف واحد، يتفقون فيما بينهم على تحقيق مصلحة جامعة نسمّيها "بالعامّة" أو "العموميّة"¹.

ويعتبر مصطلح "العموميّة" من بين العناصر المهمّة في دراسة الظّاهرة الشّعريّة، ذلك أنّه يعدّ مصطلحا في جوهره سياسيّ واجتماعيّ، خصوصا وأنّ له علاقة بما يمارسه الأفراد، وذلك هو نفسه التّعريف المطبق على التّراث. فلا يمكن أن نتحدّث عن التّراث الشّعبيّ دون المرور بمصطلح العموميّة، فالتّراث هو روح العموميّة، ولا يمكن فصله عن الموروث الاجتماعيّ والثّقافيّ. وهكذا أصبح مصطلح الأدب "شعبيّ" أو "عاميّ" يطلق على الأدب المنبثق من عامّة النّاس، أيّ من الطّبقة الشّعبيّة المحرومة؛ إذ يعبر عن خلجاتها ومشاعرها².

لقد كان الشّعْر الشّعبيّ العاميّ المتنفّس الحقيقيّ للنّسبة العظمى من المجتمع الجزائريّ، وإذا نظرنا إلى الرّؤية الإبداعيّة لهذا الشّعْر لوجب القول أنّ منذ ظهوره كان محمّلا بهذا الإبداع، ويظهر ذلك جليّا في قصائد شعرائنا القدامى أمثال: سيدي لخضر بن خلوف، ابن قيطون، ومحمّد رواق، ومحمّد الصّالح لوصيف.

إنّ الشّعْر الشّعبيّ عندما يرقى إلى المحكّ الإبداعيّ، فهذا ليس غريبا لأنّه بطبيعته (إبداع)، وله مبدعوه الذين أوضحوه لنا بالرّغم من افتقارهم للأدوات الإبداعيّة الحقيقيّة، بل كانت لديهم طبيعتهم الخاصّة بهم، وصدقهم

في القول الذي نراه واضحا وجلّيا في قصائدهم الزاخرة بالصّور البلاغيّة والإبداعيّة المتفرّدة .

2-الشعر الشعبيّ من حيث الألفاظ والعبارات عند سيدي لخضر بن

خلوف:

نظرا لاختلاف المستويات الثقافيّة في المجتمع الجزائري، جاء الشعر الشعبيّ قريبا من الطبقة البسيطة، طبقة الشعب المحرومة من حقوق العلم؛ فعبر عن احتياجاتهم بألفاظ وعبارات متداولة لدى الجميع يفهمها الصّغير والكبير الأُمّيّ والمتقّف، ونوع الشّاعر الشعبيّ في استعماله لهذه الكلمات بين فصيح يدخل في إطار العربيّة الفصحى، ولفظ عاميّ متأثر باللهجة المتداولة، تتخلّلهما أحيانا كلمات فرنسيّة. ويتّضح هذا بجلال في شعر "سيدي لخضر بن خلوف" في أبيات من قصيدته "قصة مزگران" إذ يقول :

يا فارس من ثم جيت اليوم	عيد أخبار الصّح معلومة
يا عجلان ريّض الملجوم	رايت اجنود الشوم ملمومة
يا سايلني عن طراد الروم	قصة مزگران معلومة
يا سايلني كيف ذا القصة	بين النصراني وخير الدين
اجتمعوا في برهم الأقصى	بجيش قوي جاوا معتمدين
ترى سفون الروم محترسة	صبحوا في المرسى أعداء الدين

إنّ المتفحّص لشعر "سيدي لخضر بن خلوف" يلاحظ أنّ نسبة عالية من الألفاظ والكلمات التي استخدمها الشّاعر يمكن إعادتها إلى العربيّة الفصحى، على الرّغم من أنّه لم يلتزم فيها بقواعد الإعراب من ذلك: "جيت" من "جاء" وتعني هنا "جئت"، وكلمة "عجلان" من "عجل يعجل" وتعني

"المتعجل"، "الشوم" وتعني هنا "الشؤم" وكذا "سايطني" مشتقة من "السؤال"، و"طراد" بمعنى "طارد" و"معتمدين" التي تعني "متعمد" و"سفون" وهي "سفن" جمع سفينة. وهكذا لا نجد في النص ما يبتعد عن العربية إلا القليل من الألفاظ مثال: "ثم" والتي تعني "هناك" استعملت للإشارة، وأيضا كلمة "الببوش" بمعنى "الحلزون" ولفظ "شوف" وتعني "انظر" في قوله:

شوف بلاد المسلمين كراها اليوم تسببها أهل الكفر الظالمة.

ومن هنا يتضح لنا أن الاختلاف الذي يبدو بين كلمات النص وأصلها العربي، إنما يرجع إلى النطق المعتاد عند عامة الشعب، وتلك خاصية من خصائص اللغة الشعبية التي لا تلتزم بالقواعد النحوية والصرفية بصورة عامة إلا في النادر جدًا، مما جعل الناطق يضيق حروف الكلمات ويحرف أخرى وهي أصيلة فيها .

ومن آثار "العامية" على القصيدة الشعبية ابتداءها بساكن خلاف اللغة العربية الفصيحة، وهذا ما أشار إليه محمد علي دربوز: "واللغة البربرية سلسلة مرنة، تقبل كل الألفاظ الدخيلة فتبررها، فتصبح جزءا منها، ومن خصائصها التي لا تجدها في العربية الابتداء بالساكن ...، ومن خصائصها اجتماع ساكنين وأكثر، وقد ينقلب الاسم فعلا، والفعل اسما".³ والأمثلة في هذا المجال كثيرة، وقد ورد في قصيدة "سيدي لخضر بن خلوف" قوله: "يهوم" و"جناح".

جيش بلا سلطان غير يهوم ضاقت به جناح معدومة

وكذا في قوله:

استوعظ في طلبتو واشتكي مشى لمقام الثعالبي ويدخل

كما نجد اجتماع ساكنين في بعض ألفاظ الشعر الشعبيّ، وهذا لا وجود له في العربية التي إذا التقى فيها ساكنان كسر الأول، في حين نجد ذلك ممكنا في العامية الجزائرية مثل كلمة "تليان"

قالوا له يا أمير لا تليان
لا دين إلا دين محمد
استنشرح سلطانا وليان
جاته قومه زاهية ترعد
وقوله:

طل على الفرطاس يوما مات في المغرب أهل الخزي ردموه
3- سقوط حركات الإعراب :

تتميّز لغة القصيدة الشعبية الجزائرية كغيرها من القصائد الشعبية العربية بظاهرة تسكين أواخر الكلمات، وهذه الظاهرة قديمة في اللهجات العامية بصفة عامة⁴. إنّ لغة القصيدة الشعبية الجزائرية لا تعرف ظاهرة كسر وضمّ وفتح آخر الكلمات، كقول سيدي لخضر بن خلوف:

اللي حضروا جاهدو ومشاو والبعض من الناس ما حضروش
واللي طاحوا في الحفير بقاوا كثرة دوك الناس ما صبروش
واللي جاوا الصبح يتمشاوا ما صابوا في السوق ما يشروش
وفي موضع آخر، يقول :

صبح برج العظيم الطويل لن تجبر من فوق بحر الموج
يشوفوك نصارة القشتيل برج ملولب في السما هجهوج

وكثيرا ما يلجأ الشاعر الشعبيّ إلى ظاهرة الحذف، والتخفيف في اللفظة نظرا لثقل النطق بها، والحذف لغة: "القطع وهو ظاهرة تشيع في لغة العرب وتهدف في كلّ مواقعها إلى التخفيف"⁵ وقد يقع الحذف في الجملة

والمفردة والحرف والحركة⁶. إنَّها ظاهرة شائعة في الشَّعر الشَّعبيّ ونموذجنا "قصة مزگران" لصاحبها سيدي لخضر بن خلوف تجسدها أحسن تجسيد كقوله:

اجتمعوا في برهم الأقصى بجيش قوي جاوا معتمدين
فكلمة "جاو" أصلها جاءوا، والملاحظ هو سقوط الهمزة وتخفيفها،
ومثلها أيضا قوله :

يا مغراوة تحزموا للكيد منكم خلقت سلاطين واجواد
فكلمة "سلاطين" أصلها "سلاطين" حذفت الياء لتخفيف النطق.
4- ظاهرة النّحت: وهي ظاهرة تشترك فيها اللّغة الفصحى أو العاميّة، ونعني بها "الصّقل وبمقتضاه نختصر الكلمة في حروف، والجملة في كلمة"⁷ والنّحت من الظواهر الصّوتيّة التي استساغها الشّاعر الشَّعبيّ الجزائريّ في عمليّة التّلفّظ⁸، وأصبح النّحت ملازما لأغلب الألفاظ التي يأتي بها في قصائده، وكمثال على ذلك، "لي" التي أصلها "الذي" أو "الذين" في قول الشّاعر:

واللي جاوا الصبح يتمشاوا ما صابوا في السوق مايشروش
وكذلك "جاته" والأصل "جاءت إليه" في قوله:

استنشرح سلطانا وليان جاته قومه زاهية ترعد
وبما أنّ "العاميّة" هي اللّغة المحليّة لمجموعة من الأفراد في منطقة معيّنة نجد بها الكثير من الكلمات الدّخيلة (أجنبيّة)؛ إذ تعتبر من مخلفات الاستعمار، هذه الكلمات لم تخل منها قصائد شعرنا الشَّعبيّ، الذي يتّخذ العاميّة كلغة للتعبير عن قضايا كقول شاعرنا :

أمورينا زرني كرير يا جاري يلرناك فيا
اليوم طار البنش بنير قال البنش مادرميا
فكلمة "مورينا" معناها أسمر في اللغة الإسبانية، وأيضا كلمة "مادرميا"
إسبانية. في حين تعود جلّ كلمات الشعر الشعبيّ إلى أصل عربيّ فصيح،
وهذا دليل على ثقافة الشاعر العربية المسلمة كقول الشاعر ابن خلوف:
واستفتح بالبر والبركة قدم جاه المصطفى ورحل

وقوله :

والفردوس طيور فيه تحوم وسنادس في النوع مرقومة

وأیضا:

يضحي قوت معاشهم زقوم ورواو من الحنضل بعد طيب الما

إنّ كلمات: فردوس، سندس، زقوم...كلمات مأخوذة من القرآن
الكریم. وهكذا بوقوفنا عند بعض الظواهر اللغويّة المشتركة بين "الفصحى"
و"العاميّة" في شعر "سيدي لخضر بن خلوف"، اتّضح لنا أنّ لغته الشعريّة
ليست فصحيّ تماما، وليست عاميّة نهائيا بل هي بين البينين، ولذلك لا يمكن
نعتها بالفصحى أو بالعاميّة كلّيّة، وإنّما هي عربيّة الأصل محليّة الطبع.

-الإحالات:

- 1- عبد الحميد يونس، الهلاليّة في التّاريخ والأدب الشعريّ، دار المعرفة، ط 2، 1968م،
ص: 82 .
- 2- محمد الجوهريّ، علم الفولكلور، دار المعارف، القاهرة، 1975م، ص: 58 .
- 3- محمد عليّ دربوز، تاريخ المغرب الكبير، مطبعة بابل، ط1، 1964م، ص: 49 .
- 4-وليد صديق ملحم، البنية اللغويّة والصوتيّة للهجة، مجلّة التراث، ع 4، 1980م، وزارة الثقافة
الإعلام، العراق، ص: 81

- 5- محمد سمير نجيب اللّبيّ، معجم المصطلحات النّحويّة والصّرفيّة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ص: 62.
- 6- المرجع نفسه، ص: 63.
- 7- السّمرائيّ إسماعيل خليل، التّغيّرات الصّوتيّة في لهجة بغداد وجورها اللّغويّة، ص: 170.
- 8- المرجع نفسه، ص نفسها .